

"أرق الروح" في الخطاب النقدي الصحافي

د. رضا الأبيض

قسم اللغة العربية وآدابها . المعهد العالي للعلوم الإنسانية مدين

جامعة قابس . تونس

ridhalab69@gmail.com

الملخص:

كلمات مفاتيح : صحافة ، نقد صحافي، سيرة ذاتية، يمني العيد، أرق الروح ..

Abstract:

The press is an essential source of communication and education. That's why, literary critics publish their articles and literary studies in newspapers.

Press is an effective and quick way to spread literature and criticism outside universities and among the general public...

Many newspapers have preserved important critical articles. But, in fact, most researchers still do not care about literary journalism. They are limited in the bibliography of their studies and research to " official "references: books and articles in specialized journals.

In this study, we are interested in some articles published in Arabic newspapers or electronic ones about the biography of critic and professor at the Lebanese University Yomna Al-ied "يمنى العيد Spirit insomnia" أرق الروح published in 2013

We are trying to extract the most important issues that the critics have treated in their journalistic articles and to discern the advantages of writing and its methods in literary criticism.

Keywords: Journalism, Journalistic Criticism, Biography, Yemena Eid,

تعتبر الصحافة مصدرا أساسيا من مصادر التواصل والتثقيف، لذلك نشر فيها نقادُ الأدب مقالاتهم ودراساتهم الأدبية. فالصحافة وسيلة ناجعة وسريعة لنشر الأدب والنقد خارج الجامعات وبين عموم الناس ...

ولقد حفظت لنا صحفٌ كثيرة مقالات نقدية هامة . ولكن ، في الواقع، مازال أغلب الباحثين لا يهتمون بالصحافة الأدبية" فهم يقتصرون في بليوغرافيا دراساتهم وبحوثهم على المراجع " الرسمية ": الكتب والمقالات المنشورة في المجالات المتخصصة.

في دراستنا هذه نهتم ببعض المقالات الصحافية التي نشرت في جرائد ورقية أو إلكترونية عربية حول سيرة الكاتبة يمني العيد " أرق الروح " 2013 ، ونحاول أن نستخرج أهم القضايا التي اهتم بها النقاد في مقالاتهم الصحافية وأن نتبين مميزات الكتابة وأساليبها في النقد الأدبي الصحافي ..

1. لماذا الاهتمام بـ" التلقي النقدي في الصحافة" ؟

الصحافة جزء من البنية الثقافية والحضارية في العصر الحديث تلعب دورا هاما في نشر الأفكار وتشكيل الرأي والذوق وتوجيه حركة الناس خاصة بعد التطور الهائل في وسائط الاتصال وأساليب النشر والإذاعة.. وإنّ كلّ محاولة لبناء نظرية في الإعلام والصحافة لا شكّ تحتاج إلى تقييم استقبال الصحافة المواد ونشرها محتوى وأسلوبا وشكلا ، في علاقة بمجموع السياقات الثقافية والسياسية والنفسية .. في هذا الإطار يتنزل التفكير في علاقة الصحافة بالأدب وبالنقد الأدبي .

لهذه الإشكالية أبعاداً وتفريعات شتى لا نروم الخوض فيها، فليس هذا غاية مقالتنا . حسبنا أن تلقي الضوء على نماذج من التلقي الصحفي لنصّ أدبي بعينه ونفكر في أشكال التفاعل بين الإطار الصحفي والمادة الأدبية والنقدية ، وفي أثر ذلك على تطوير الفعل الصحافي والفعل النقدي في أن.

2. النقد الأدبي والصحافة : لقد لعبت الصحافة العربية منذ ظهرت دورًا¹ في ذبوع الأعمال الأدبية ونشر ثقافة النقد. فعلى صفحاتها تشكل النقدُ الأدبيُّ الصحفيُّ، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر². ثم استمر هذا النقدُ مادةً صحافية يكتبها صحفيون ونقادٌ مختصون في أعمدة وأقسامٍ ثقافية وفنية تشكل متونا وإن اشتركت كلها في مصطلح " الصحافة الأدبية " وفي بعض السمات كالإيجاز والتوازن الكمي³ والجمع بين الانطباع والعلم، إلا أنها اختلفت فيما بينها هادفاً وأسلوباً وأدواتٍ في التحليل وقيمة ..

لقد كان لظهور أجيالٍ جديدة من المبدعين ومن النقاد دورٌ في تطوير الكتابة النقدية في الصحف من خلال الحوارات والمعارك النقدية والمتابعات الجادة من جهة الكتاب ، وانتظام الصدور والمساحات المخصصة للمقالات وأناقاة الإخراج .. من جهة دور الإصدار.

ولا شك أن التطور الكمي قد راكم أيضاً تطوراً نوعياً أعاد الاعتبار إلى موضوع العلاقة بين الصحافة والأدب ، وإلى أهمية أحدهما في تاريخ الآخر ومساره .. ولذلك فإننا نرى محمود ظاظا قد جانب الصواب إذ عمّم حين اعتبر النقد الصحفي دليلاً على ما يعانيه النقد العربي من أمراض الاختزال والقسر⁴ .

إن " الصحافة الأدبية " ⁵ بالإضافة إلى كونها الطريقة الأسرع، مقارنة بالدراسات الأكاديمية والكتب المختصة، في توصيل الأفكار الأدبية والمواقف النقدية، فهي تمثل أحد مكونات السياق الفعلي للنصوص الأدبية الذي يحيط بنشأتها ويساهم في تشكيلها.

ولما كانت كثرة من نتاجنا الأدبي ظهرت أولاً في الصحف ، ولما كان هذا " الوعاء " الحافظ الأوسع لهذا التراث الذي لم يُجمع أغلبه في كتب مفردة تتعاورها الأيدي⁶ ، فإن دراسة الأدب العربي لن تكون على أسس علمية ما لم تلتصم مادتها أيضاً في الصحافة ، ليس وعاءً فحسب ، بل سياقاً مساهماً في بناء المعنى والدلالة⁷ .

لقد توافر من جهود كتاب النقد في الصحافة العربية متنٌ غزيرٌ توزع أغراضاً (التقديم والتحليل والقيوم..) موضوعاتٍ (أعلام وأثار وقضايا ..) ومناهج واتجاهاتٍ (انطباعي ، تاريخي، أسلوبِي ...) وأشكالاً فنية (خاطرة، تعليق، مقال نقدي ..)

والناظر اليوم في الدراسات النقدية يلاحظ بيسرٍ أنّ دراسة الأدب من خلال الصحف لا يزال، رغم ما بذل من جهد ، أرضاً بكرًا.

وإن تعدد الصحف لاشك يجعل في الأمر متسعاً لدراسات كثيرة عن الأدب وعن أشكال تلقيه. وما يزيد من أهمية الأمر إقبالُ الباحثين والنقاد الأكاديميين على الكتابة في الصحافة، وما طرأ على الصحف من تطور إذ صارت تكلفُ متخصصين بالإشراف على الصفحات الأدبية. ومن الدور من استحدثت صحفاً خاصة بالأدب، واستقطبت أقالماً متخصصة تنشر باستمرارٍ فتثير القضايا وتخوض المعارك وتلاحق كلّ جديد وتساهم في تشكيل الوسط الأدبي والذوق العام ..

في دراستنا هذه نهتم، اعتماداً على المنهج الوصفي وتحليل المحتوى، بأهم القضايا النقدية التي تداولتها بعض المقالات الصحفية ، التي تيسر لنا جمعها ، حول كتاب يمني العيد "أرق الروح"⁸ ، ونهتم بأسلوب كتابة هذه المقالات منهجاً ومصطلحاً ...

ولقد بنينا متن هذه الدراسة على مادة استقيناها من الصحافة تندرج كلها ضمن نوع⁹ من المقال الصحفي هو " المقال النقدي " الذي يكون موضوعه النشاط الأدبي والفني والعلمي تقديمًا وتفسيرًا وتحليلًا غايته توعية القارئ بأهمية الإنتاج ومساعدته على الاختيار من الكم الهائل الذي يتدفق كل يوم¹⁰. وبناء على ذلك فإنه لا يعني ضرورةً النقد الانطباعي الذي عُرف في مراحل سابقة لأنه استجاب في مساره تطوره إلى ما تقتضيه منهجيات البحث والروح العلمي كما أشار إلى ذلك عبد العزيز شرف¹¹. لقد اكتسب بعداً علمياً ومنهجياً يتعادل مع البعد الأدبي في تناول الأعمال الإبداعية من خلال معايير وأسس يحاول بها أن يتخلص من الذاتية وينتسب إلى موضوعية العلم .

ولما كان مجال هذه المقالات الإنتاج الأدبي ، فإنها تحديداً " مقالات نقدية أدبية " تميزاً لها عما يكون مجاله الإنتاج السينمائي أو التشكيلي أو العلمي ..

ولقد أجمع غير قليل من الدارسين على أن المقال النقدي الأدبي يجمع بين الأصول العلمية والانطباعات الذاتية، وعلى أن لغته لغة علمٍ وفنٍ تجمع بين الدقة والجمال وتركب الوضوح والبساطة، لا التبسيط ، انسجاماً مع مقتضيات التلقي (الجمهور الواسع من قراء الصحيفة). ولقد أجمعوا أيضاً على أن بناء هذا النوع من المقالات عادة ما يكون هرمياً معتدلاً¹².

فما هي أهم القضايا النقدية التي أثارها نقاد " أرق الروح" في مقالاتهم النقدية الصحفية؟ وما هي أهم خصائص هذا الخطاب النقدي؟

3. في تلقي " أرق الروح " :

1.3 : المدونة

نعتمد في دراستنا هذه مدونة تتكون من مقالات جمعناها مما توفر بين أيدينا من صحف عربية ورتبناها ترتيباً زمنياً.

العنوان	الكاتب	المصدر	التاريخ
1 سيرة يمى العيد لمدينة صيدا تتقاطع مع المكان وصراع الاسمين	عبد وازن	جريدة الحياة	03 أكتوبر 2012
2 سؤال الأرق الصامت في السيرة الذاتية	عبد العزيز مقالح	جريدة الحياة	02 مارس 2013
3 يمى العيد في أرق الروح من حساسية الفردي إلى الإنساني	محمد خضر	جريدة الإتحاد	18 أبريل 2013
4 يمى العيد في أرق الروح : عندما يكتب الكبار	أسمية درويش	جريدة المستقبل الاللكترونية	13 أوت 2013
5 سيرة ممزقة بين اسمين	حسين حمزة	جريدة الأخبار	19 سبتمبر 2013
6 مضمرة الاسم	رولا عبد الله	جريدة الاتحاد	19 سبتمبر 2013
7 يمى العيد المقايضة الصعبة	شوقي بزيع	جريدة السفير	17 ماي 2013
8 كئنا ننتظر ...	شرف الدين مجدولين	جريدة العرب	08 ماي 2014 ع 9552, ص 15 www.Alarab.co

9	في أرق الروح ليمنى العيد	جان نعيم طنوس	جريدة الطريق	12 جويلية 2015 www.Al-12.com tarik.com
10	يمنى العيد ساردة العتبة في أرق الروح	زهرة كرام	جريدة القدس العربي	01 سبتمبر 2015

23 محاور الاهتمام: إذا ما فككنا هذه المدونة في مستوى محاور اهتمامها وجدناها قد بحثت ، سواء في تأنّ أولمًا، في المسائل التالية: متى تُكتب السيرة ؟ لماذا ؟ ماذا في السيرة ؟ كيف تُكتب ؟

123 : متى ؟

اهتمّ شوقي بزيع بزمن كتابة السيرة حين اعتبر " أرق الروح " علامة على ترّجل العيد ، وهي في سن السبعين ، " عن صهوة التنظير وسدة التحليل النقدي " . وهي مرحلة من العمر، بالإضافة إلى أنها تمثل الزمن المعتاد لكتابة سيرة ، ستمثل في رأيه عودة إلى الأرض، إلى " التراب الأهل بالندوة" بعد أن كانت تقيم في الأعلى حيث التنظير والتحليل. على الأرض، في أخرة من العمر يتخفف المرء من أعباء كثيرة ليلتحم من جديد بنفسه طفلا يحكي ويتخيل.. فهل قدرُ السيرة أن تكونَ تنويجا لحياة أم هي استعادة ، في أي وقت شاء الكاتبُ ، لتجربة في الحياة؟

إن الناظر في نصوص السيرة العربية يجد كتابها قد ذهبوا المذهبين. والواقع أن كتابة السيرة في أخرة من الحياة وإن كان يتوافق مع أغلب التنظيرات النقدية التي ترى أن السيرة حكي استعادي يقوم به شخص واقعي يركز على تاريخ شخصيته إلا أنه لا ينفي إمكانية اكتفاء السيرة باستعادة مرحلة من مراحل هذا التاريخ يعرض من خلالها الكاتبُ تجربة من تاريخ أشمل.

إنّ على الناقد ، إذا، أن ينتظر " ما بعد السيرة " ليتحقق من كون العيد ترجلت فعلا من على " صهوة التنظير"، أم أنها ستعود إلى التنظير من جديد لتربط " الما بعد " ب " الما قبل " ، فتكون السيرة حينئذ حلقة في مسار لم يكتمل بعدُ وحكاية تجربة وليس حكاية تاريخ شخصية ، وإن كانت الأخيرة قد بلغت السبعين.

223 : لماذا ؟

لا شك أن دوافع كتابة السيرة تتعدّد وتنوّع بتعدّد كتابها تجربة وثقافة وطموحا. والناظرُ في السير لا يعدم أقوالا صريحة تكشف عن بعض هذه الدوافع أو كلّها. وقد يحتاج الناقد إلى ممارسة فعل التأويل بحثا عن دوافع الكتابة والغاية منها.

يمكن تقسيم الدوافع التي أشار إليها نقاد " أرق الروح " إلى دوافع نفسية وأخرى موضوعية كشفت كلها عن رغبة في :

- الاعتراف والكشف: أجمعت جلّ المقالات على أنّ غاية العيد من كتابة سيرتها كانت الكشف والتنقيص خاصة وأنها جمعت بين أمرين، الأول هو تجربة المعاناة والغربة التي عاشتها بسبب أنوثتها واسمها ولون بشرتها وكرهات العائلة والمجتمع. وأمّا الثاني فهو الجرأة. وهو ما ساعدها على الغوص في الدفين من المشاعر والمكبوت من الأسئلة، فكانت السيرة، على حد عبارة رولا عبد الله، كشافا وبوحا. والعيد إذ تبوحُ تعود إلى زمن البدايات، إلى الطفولة ليس باعتبارها أحد مظاهر الماضي فحسب بل أيضا أفقا مشرعا على المستقبل وعلى الحياة.

ذلك ما يبرّر انحياز العيد، رغم الوجع، في سيرتها إلى الحياة وإلى أسطورة البعث والولادة من جديد.

- إثبات الذات : ويرى شوقي بزيع أنّ السبب في عمقه ناشئ عن توزع الكاتبة بين اسمين وبالتالي بين شخصيتين وهويتين: هوية ناجزة وأخرى قلقة . وهو ما جعل سيرتها " في معظم فصولها وكأنها حرب استرداد متأخرة " تعتذر من خلالها المؤلفة إلى شخصية قابعة في دواخلها لم يتخ لها الانكباب على النقد والتنظير فرصة للظهور ..

إنّ هذا التوزّع في الشخصية وهذا السعي لإثبات الذات هو ما سيجعل ، في رأي عبده وازن، بداية الرواية فريدة . وهو ما سيوجه، أيضا، بعض المقالات النقدية لتستنس بالمنهج النفسي في قراءة هذه السيرة. ذلك ما تجلّى في مقال جان نعوم طنوس على سبيل المثال. فكتابة السيرة هي كتابة تمرقات الهوية وتاريخ تشكّلها.

ولقد قاد الاهتمام بدوافع كتابة السيرة إلى الإشارة إلى اكرهاات كتابتها وإلى ما يعيق انخراط الكاتب العربي فيها. وهي اكرهاات ناشئة، في رأي زهور كرام، عن وضع الحرية والديمقراطية السياسية من جهة أولى، وعن الحضور القوي لسلطة الجماعة (القبيلة، العشيرة، الطائفة...) التي تذيب مفهوم الفرد من جهة ثانية. ولهذا، تتحول السيرة إلى خطاب إثبات للذات في المقام الأول.

- التوثيق : بالتوازي مع البوح وإثبات الذات تكتب العيد ، ككل كاتب سيرة، شهادتها على العصر. إنها شهادة مثقفة. ولكن هل هي شهادة " على زمنها بكل ما فيه " كما ذهب إلى ذلك محمد خضر؟

إنّ في حكم خضر استغراقا في رأينا مجانيّ للصواب ولحقيقة أنّ السيرة تقوم على الاختيار وعلى الغرلة سواء بسبب ما يصيب الذاكرة من نسيان أو لأسباب أخرى واعية وغير واعية. تتفق في ذلك السير والمذكرات والاعترافات وسائر الخطابات التي يروم أصحابها كتابة شهادتهم على التاريخ.

والواقع أنّ قيمة السيرة ليست في أن تكتب الزمن " بكل ما فيه" وإنما في أن يكتبها شخص " هامّ " عاش معاناة تركت أثرها في روحه وجسده.

323: ماذا أحكي؟: يجمع أغلب النقاد على أنّ السيرة كانت كتابة للتفاصيل. ولذلك جاءت بالغة الثراء كما وصفتها

درويش.

لقد وصفت العيد الأرقّة والزوارب المعتمة والقناطر والسلالم الحجرية والدكاكين الصغيرة وما تعرضه من البقوليات والخضار والفاكهة والحلويات والخبز الطازج والمشروبات. وحكت أحداث الحرب ووصفت الرعب والحرمان والزمن العربي، بما هو يؤس وقحط ودماء. وحكت قصة تكريمها بعد تخرجها في المدرسة من قبل رئيس الوزراء اللبناني رياض الصلح. وأخبرت عن إدارتها مدرسة ثانوية في الثامنة والعشرين من العمر، وموقف الأهالي من ذلك واستعادت ما خاضته من معارك خلال تلك الفترة، التي حرصت فيها على إتاحة نظام تعليمي جيّد للفتيات حرمت هي منه. تقول: «كنت لا أتعب من التفكير بما يجعل التلميذات يزهون بأنوثتهن ويزدن معرفة بذواتهن، وثقة بأنفسهن».

وحكت رحلتها مع الأدب التي توطدت خاصة في الجامعة؛ إذ قرأت وهي شابة نزار قباني وسعيد عقل والبياتي وحسين مروة وتولستوي، وغوركي. وتغنت بصيدا وبيروت بيروت، ولم تنس أن تحكي لقاءها الأول مع فيروز في بيت عاصي الرحباني:

«يومها لم أصدق أن هذه المرأة البسيطة الهادئة، التي لا تتكلم هي حقاً فيروز، صاحبة الصوت الذي سحرني وتعبدت لسماعه. وفي مناسبة أخرى للموسيقار السوفييتي المعروف خاشدوريان، في بيروت، في شارع الناصرة، رأيت فيروز..»

واستعادت حادثة كتابتها المقال النقدي الأول بتشجيع من صديقها الناقد محمد دكروب. وأشارت إلى رفضها الاشتراك في الحرب الأهلية، وتمردها على موقف حزنها في موضوع حمل السلاح، إيماناً منها بأن القلم وسيلة النضال... وحكت ذكريات أخرى كثيرة تؤكد فعلاً أنّ السردَ السيرى استعادة للتفاصيل مرتبة حيناً و"مشوشة" أخرى بفعل الاستطرادات والانزياحات

إنّ المقالات النقدية إذ تستعيد بعض هذه التفاصيل في سياق الاستشهاد والحجاج والتنويه .. تختار ما تراه مناسباً ذا دلالة، وتمنح من يقرأ النص كاملاً فرصة التعرف على مقاطع منه تشكل إذا ما اجتمعت صورة وإن أوليّة عن الكتاب قد تحفز على قراءتها. وتلك إحدى أهمّ وظائف المقالات النقدية في الصحف السيارة. ولا خلاف على أنّ هذه التفاصيل وإن ارتبطت بالساردة فإنها تمثل أيضاً كتابة بعض من سير الآخرين والمدن والأوطان..

إنّ سيرة الـ " أنا" مسكونة بالضرورة بسير شخصيات أخرى تعرفت إليهم الـ "أنا" شخوصاً حقيقيين من لحم ودم أو نصوصاً وحكايات تروى . وهي أيضاً بالضرورة كتابة لسير القرى والمدن التي نشأت فيها وعاشت إن طويلاً أو قليلاً.

لقد بلغت سيرة العيد حداً من الرهافة ومستوى من السرد جعلها قادرة على أن تُصعّد الواقع والتاريخ الفردي والجماعي على السواء وقد تلاشت بينهما الحواجز. وصارت ذاكرة الكاتبة جزءاً من ذاكرة الناس والمدينة التي وإن وصفتها وصفاً شعرياً إلا أنها لم تفتقد فوتوغرافيتها الواقعية .

ولقد أشار عبدة وازن إلى أن حضور صيدا في سيرة العيد كان شديداً " عبر ذاكرة الفتاة، طفلة ومراهقة، بجوهر الشعبي الفريد وجغرافيتها المكانية والعاطفية، بأحيائها وساحاتها، وبشخصياتها الطريفة مثل أعمى الحارة وسعيد المجنون ورجل الفوانيس وسواهم .. "

ففي سيرة العيد وصف لتضاريس المكان (الهضبة ، الشاطئ..) ووصف لأمزجة الناس وعاداتهم ومعمارهم (الأسوار ، الأقواس ، البيوت والداكين ..) وروائعهم وألوانهم..

تقول العيد : " في ضلوعنا غريزة الحبّ إلى الأمكنة الأولى، بيوتنا ومدننا التي هي أعشاشنا وقواقعنا، هي المغارات والأعماق . ورصدت التحولات التي طرأت، بالتوازي ، على السيرتين : سيرة الذات، وسيرة المكان.

ومن الصور الدالة على هذا التداخل بين سيرة الفرد وسيرة الجماعة حادثة إصابة العيد في المظاهرة الأهلية ضد الانتداب الفرنسي ، وهي التي خلفت ندبا على جسدها سمته " ندب الاستقلال"، فتحول بذلك جسدها إلى نص تقرأ فيه (ونقرأ نحن أيضاً فيه) تاريخ الناس وذاكرتهم .. لقد أتاح هذا التنقل بين الذات والجماعي للعيد إمكانية إثارة القضايا الاجتماعية والفكرية والعقائدية (الهوية، الطائفية، المعتقد ..) ، وجعل سيرتها تتجاوز لبنان إلى العالم العربي كما ذهب إلى ذلك المقالح.

إن هذه السيرة حسب خضر مهمة في " قراءة التحولات وأرشيف سريع على أهم محطات لبنان وعالمنا العربي.. " تلعب مقاطع كثيرة منها دور الوثيقة السوسولوجية والتاريخية كما يذهب إلى ذلك بزيع. ولما كانت صيدا شديدة الحضور في سيرة العيد اعتبرها درويش بطل هذه السيرة ومحورها.

ولا خلاف على أنّ هذه التقاطعات تمنح الشخصية بعدها الاجتماعي والثقافي ، وتمنح النص ما به يكون في بعد من أبعاده وثيقة أو شهادة على مرحلة من العصر يمكن أن يستفيد منها المؤرخ والباحث الاجتماعي ..

ومن التفاصيل في سيرة العيد ما كان شديد الصلة بتجربتها في الكتابة. صحيح أنّ تجربة الكتابة جزء من تجربة الحياة ، لكنها قد تكون الأهمّ حتّى لكأنّ الحياة رغم اتساعها وشمولها لا وجود لها ولا معنى في ظل غياب القلم والورق . لقد كانت يمني العيد شخصية متعددة الاهتمامات والشواغل، أرقتها الحياة ، ولكنّ أرقّ الكتابة كان أكبر وأشدّ عنفا. ولذلك اختارت ، كما ذهب إلى ذلك عبده وازن ، " أرق الروح " عنوانا لسيرتها.

ولكن قارئ السيرة مُدرك ، لا شكّ، أنّ أرقّ الكتابة كان بسبب بحث الذات عن ذاتها . فالعيد لم تكتب سيرة الذات بقدر ما كتبت سيرة البحث عن الذات. فلقد كان سؤالٌ : من أنا؟ الدافع والمنطلق والغاية ظلّ يرافقها ، في صمت، مذ وعت الكلام لينتأ من جديد في عمر فيجعل حياتها بكرا غضة ويشعرها ، ويشعرنا نحن أيضا، بالهباء واللامعنى .

ما الذي ينظم هذه التفاصيل ويردّ بعضها إلى بعض؟ إنها فكرة الصراع لا بين وجهين لذات الشخصية بل بين هويتين ثقافيتين هوية قوامها مرض الذكورة وأخرى سمتها التحرر من قداسة الأب وسلطان المدينة. والعيد إذ تنتصر إلى شمير يمني فإن في ذلك حسب زهور كرام " انتصارا لصوت المعرفة " وتعبيرا عن التحرر من تاريخ الأوهام. بيد أنّ هذا الانتصار لم يمنع حسين حمزة من القول بأنّ السيرة تعيد الاعتبار إلى حكمت. وكأنّ السيرة عود على بدء من أجل الحصول على تكفير ما إزاء حكمت، الاسم الأول الذي تعرض إلى الإهمال والإقصاء مقارنة بالاسم الذي لمع على أغلفة الكتب وصفحات المجلات .

إنّ الصراع الذي قامت عليه السيرة لم يخف إذاً فكرة السعي إلى المصالحة ورأب الصدع. لقد كانت السيرة فرصة لبعث الحياة في حكمت من جديد.

ولقد كشفت تفاصيلها عن التقاطع بين الزّمن الاجتماعي والزمن النفسي. اتسم الأوّل بـ " العسف الذكوري " على حدّ عبارة ش بزيع ، واتسم الثاني رغم المعاناة والتمرد بالعقلانية التي كان مردّها الفكر والثقافة. ولقد تجلّى ذلك في أنّ العيد لم تقتل أباه في سيرتها كما قال عبده وازن، بل ظل رمزا للحنين والحب كتبت عنه ابنته أجمل الصفحات . لقد كان للوعي بالصراع وملابساته ، كما ذهبت إلى ذلك كرام كرام ، دور في حسن إدارة الصراع.

ولذلك ليس غريبا أنّ نجد العيد في سيرتها مؤمنة ومعولة شديد التعويل على العلم والتعليم لاختراق البنى الطائفية القائمة وخلخلتها كما يقول أمجد ناصر، وبالتالي تحرير الأفراد من الأوهام واقدارهم على ممارسة الحرية والتمتع بها.

3.3: كيف أحكي ؟

133 : بداية النصّ: ليس أقسى على الكاتب من أن يكتب بحثه عن ذاته. ولعلّ من مكابحات سؤال " من أنا؟ " صعوبة اختيار بداية النص على المستوى الفني . ولقد اعتبر عبده وازن بداية " أرق الروح " فريدة إذ قامت على سؤال : من

أنا؟ الذي كشف منذ البدء عن الصراع بين الاسمين / الهويتين في الشخصية ، رغم ميل العيد إلى (يمنى) تحرراً من زمن (حكمت) زمن الذكورة و التسلط . يقول وازن : قد تكون هذه المقاربة التي انتهجتها يمى العيد، مقارنة جدلية الاسمين أو ثنائيتهما، خير مدخل إلى كتابة السيرة الذاتية. بل لعله مدخل فريد، ينطلق من الهوية اللغوية للاسم ثم يفضي إلى الهوية الذاتية والثقافية المكتسبة".

ولقد أسس هذا السؤال / هذه البداية السيرة على أطروحة رأى طنوس وغيره أنها كانت الأطروحة الأساسية وهي الصراع والجدل بين الثنائيات : حكمت / يمى، صيدا / بيروت ، الوطن / باريس ، الماضي المرعب / المستقبل الواعد .

وبقدر ما اقترن هذا الصراع بالتوق إلى رحاب الحرية والتخيل كما ذهب إلى ذلك طنوس، شدّ ، حسب المقالح ، العيدَ إلى دائرة الفعل الإنساني الذي لا يتعالى على التاريخ.

233: جنس النص: لم يختلف نقاد كالمقالح و طنوس على اعتبار " أرق الروح " سيرة ذاتية تجسد المفهوم المشهور للسيرة من جهة كونها عملاً إبداعياً تتطابق فيه هويتا السارد والكاتب وفيه يقدم الشخص نفسه كما عاش ويصف ما شهد من الوقائع في أسلوب سردي روائي . غير أنّ زهور كرام وإن اعتبرت " أرق الروح " سيرة ذاتية إلاّ أنها، في رأيها، لم تكن سيرة حسب المتعارف عليه في التنظير الأدبي " لأنّ العيد تدخل مجال السيرة رغبة في المعرفة من داخل الكتابة وليس من خارجها ". وتضيف " لقد بدت العيد غير معنية بالسيرة الذاتية لأنها لم تحسم في الضمير الذي تود توثيقه على أساس أنه يمثلها ويوثق سيرتها الذاتية ويحقق التطابق المطلوب في السيرة الذاتية ". والسبب في ذلك حسب زهور كرام تأثير الثقافة النقدية في المؤلفة.

إنّ التمزق بين الاسمين وبالتالي بين هويتين لا ينفي عنهما ، في رأيها، أن يشكلتا معاً شخصية العيد في مسار تكونها. إن التنازع ، أو ما اعتبرته كرام انعدام حسم في الضمير ، تجل لهذا القلق بل التمزق النفسي، بيد أنه لا يخرج عن أن يكون وجهين لشخصية واحدة ، وبالتالي فإنّ ذلك لا يُخرج " أرق الروح " من دائرة الخطاب السيري إلاّ من جهة كونها تنوعاً على هذا الجنس.

ويرى عبدة وازن أنّ " أرق الروح " نصّ سيريّ جمع بين التوثيق والتخييل في توازن ناجحٍ صهر النزعتين في خطاب غير خطّيّ توسلت فيه العيد بتقنيات القطع والفلاش باك والتقديم والتأخير ولعبة الضمائر ... ومردّ ذلك في رأي وازن الاسم الذي ظل مجروحاً جرحاً غائراً جعل خضري يرى أنّ السرد في " أرق الروح " كان درامياً .

لقد أجمع أغلب نقاد سيرة العيد على أنّ نصّها كان شديد الانفتاح جمع بين أكثر من نمط ومحا الحدود بين أجناس الكتابة فتفجرت فيه الأصوات وتعالّت أصداء أزمّة مضت وزمن حاضر وأخر قادم كل ذلك جعل هذه السيرة بمذاقٍ روائيّ تخففت به الكاتبة من التنظير النقدي ومصطلحاته الباردة الرصينة ومن تقنيات الأجناس وخصائصها الصارمة لتستحيل نصاً في الحنين ..

333 لغة السيرة : لم تغفل كل المقالات النقدية الصحفية النظر في لغة السيرة. ف"أرق الروح" في رأي المقالح كتاب بديع ترقرق سرداً عذباً لا يخلو من الشعر في قمة صفائه وواقعيته..

ويرى بزيع أنّ اللغة متنوعة في السيرة بتنوع مقامات السرد ومقتضياته " فهي باردة ومحايده وشبه تعليمية في الحديث عن الوظيفة وشؤون الإدارة [...] ولكنها حين تلبس لبوس المرآئي تتحول إلى مرآة فائز من الحسرات وترجيعات الفقد، لتبلغ عند نهاية الكتاب ذروتها القصوى، وتعود إلى مربعها الأول.. " وهي عنده وصلت التخوم في مقاطع الطفولة التي كتبها بعواطف جامحة من القيود والضوابط ..

إنّ لغة سيرة العيد في رأي نقادها شامخة وشفافة ودرامية وروحانية عاشقة . ولعلّ هذا التنوع ما جعل خضر يعتبرها لغة مثقفة . ساعدت في رأي أسمية على تحويل صيدا من مدينة ساحلية صغيرة ومهمشة في الجنوب اللبناني إلى مدينة كونية خالدة. لقد نسجت العيد لغتها في تلاؤم مع حالات الحنين والعشق والقلق فجاءت نبضا لا يتوقف.

4. تقييم السيرة : لم تمنع مقامات كتابة المقالة النقدية في إحدى زوايا الصحيفة، ولا طبيعية المتلقي الذي عادة ما يقرأ الصحيفة على عجل.. من أن يجمع نقاد سيرة العيد (كذلك الأمر في سائر ما نقرأ من نقد أدبي صحافي) ، بين التقديم والتحليل والتقييم. وكشفت مقالاتهم عن اختيارات منهجية ونظرات نقدية ثابتة وتوقفات تقييمية متباينة تعلق بعضها بالكاتبة وتعلق الأخر بالكتاب.

14: المنهج :لقد عبرت جل المقالات عن ثقافة نقدية حديثة وإن دون التزام صارم بمقاربة بعينها. لذلك يستعصي حقيقة على الباحث أن يلحق هذا المقال أو ذاك باتجاه أو منهج في النقد محدد، ليس بسبب سوء فهم النقد للمناهج وما تشترطه من انضباط وصرامة ، ولكن مراعاة للمقام . لذلك رغبوا عن الإغراق في التنظير واكتفوا بإشارات مختزلة وبالتوقف عند ما اعتقدوا أنه هام ملفت للانتباه ، بيد أنّ ذلك لم يمنع من وضوح أسس الاختيارات المنهجية وبعض أطروحاتها مثل نجد في مقالة خضر الذي استفاد من جماليات المكان لباشلار، وفي ما كتب طنوس الذي اتكأ على علم النفس وركز على ثنائية المحبة والرغبة التي تخترق سيرة العيد ، واهتمّ خاصة بما سماه " المناخ الحدادي " ومشاعر الخوف والصمت، وتوقف عند الكلمات التي تختص بالحقل الدلالي للخوف (السلس البولي، الثقب في الجدار، العدائية ..) وأحال على ما اعتبرها أمثلة دالة في السيرة. واعتبر المكان، الذي هو في الأصل فضاء أمومي، إله الرعب الأكبر.

لقد وجد في نصّ السيرة قرائن غزيرة دالة على ما في النص من عمق نفسي (الأحلام، اللاوعي ..)، فرصد وضع الهشاشة والموت وحالات الوعي و"محاولات الخروج من الشرقة "

ونبه إلى أنّ مقارنته النفسية ليست من " التفسير الفرويدي الشائع ". ولذلك فإنه لم ير الفوهة رمزاً للرحم بقدر ما تعني الاستسلام وضياع الشخصية .. ولقد أدى التخفف من التنظير بالإضافة إلى محدودية مساحة المكتوب إلى اتسام هذا الخطاب النقدي بالإيجاز والتكثيف.

24: الإيجاز والاستطراد: يذكر المقال صراحة أنّ المجال المخصص لنشر هذه القراءة محدود وبالتالي فلا مكان للتبسّط. يقول: " وبما أنّ المجال المخصص لنشر هذه القراءة محدود فلا مكان للتوسع في الحديث عن زمن الطفولة، طفولتها، وفيه ما يثير العواطف والأشجان. ولعلّ ما يلفت الانتباه في هذه المرحلة أكثر من أي شيء آخر هو ..."

لقد حفلت السيرة بما لا يمكن اختصاره في مقالة صحافية. لذلك اختار كل ناقد في إشارات مكثفة وجملي مكتنزة ما رآه أساسيا حريا بالانتباه إليه. ولا شك أنّ هذا التكثيف يساهم في خلق التشويق والتحريض على القراءة.

تلك هي السمة العامة، غير أنّ بعض المقالات في بعض فقراتها أعرضت عن الإيجاز وتوسعت استطرادا له بالسيرة صلة. فالمقال يستطرد للحديث عن سيرة طه حسين، وعن أصدئها العذبة في نفسه . ويستعيد بزيع الحادثة التي جرت بين العيد والصلح ويستطرد فيتحدث عن علاقة أدونيس بالقوتلي . وفي مقالة طنوس استطراداً للكلام توفيق يوسف عواد في "حصاد العمر" وأدونيس في كتاب التحولات وغيرها ..

لقد تخفف نقاد السيرة ، مثلما تخففت العيد ذاتها، من سلطة النقد الأكاديمي وما يقتضيه من صرامة منهجية ودقة مصطلحية لتستحيل مقالاتهم خطابا فيه من المرونة والحرارة ما في الخطاب المنقود.

لقد فرضَ مقام النقد على النقاد كبح جماع التنظير دون تنازل عن ثقافة نقدية متينة فطبيعة الإطار تفرض على الناقد الأدبي أن ينحوّ هذا المنحى الواضح والبسيط هيكلًا ولغة. ولعلّ ذلك ليس بأمر جديد فلقد عدّ التنظير والالتزام بقواعد البحث الأكاديمي في كتابة المقالة الصحفية من الأخطاء. يقول ياسر الفهد " تُنشر أحيانا في الصحف والمجلات مقالات أكاديمية وتقليدية مطولة تتسم بالمنهجية والجفاف فيشعر القارئ لدى قراءتها أنه يقرأ ما يشبه فصلا في كتاب. ونشر مثل هذه المقالات يكشف عن سوء فهم للفرق الحقيقي بين المجلة والكتاب " ¹³ .

في هذا السياق نفهم كبح المقال " تداعيات الحديث عن أشكال السيرة وعلاقتها بإشكاليات التجنيس ومفهوم النوع الأدبي " واكتفاءه بما يراه ينسجم مع مقام كتابة مقالة صحفية يقرأها جمهورٌ واسع .. ونفهمُ بساطة لغة خطاب النقد رغم احتوائه مصطلحات مثل " الاله الأكبر " و "سيرة روائية " و "موت الأب" و " نص مثقف" .. إلخ ، بل إنّ الكلام على سيرة العيد كان في بعض من هذه المقالات النقدية مناسبة لمراجعة مفاهيم وأطروحات نقدية مثل مفهوم السيرة. ترى زهور كرام على سبيل المثال أنّ نصوصا كثيرة تحمل عبارة "سيرة" (ومنها نص العيد) تدعوننا إلى إعادة النظر في التنظير النقدي العربيّ وفي استعماله لمفاهيم مثل " السيرة الذاتية " في علاقة بما تشهده الكتابة العربية من تحولات.

تقول : " إنّ ما تعرفه الكتابة العربية راهنا من تحولاتٍ في نظامها وخطابها، يجعلنا نُعيد التفكير فيها من داخل بنيتها، بعيداً عن التقيد بالمرجعيات النظرية التي تعودت القراءة اعتمادها، وهي تتجه نحو الكتابة العربية. الاقترابُ من السيرة الذاتية العربية اليوم، هو اقتراب من تحولات مفهوم الكاتب العربي الذي يعيش زمنا ثقافيا يجعله يقرأ ذاته " .

واستثمر نقاد آخرون نص السيرة للإشارة إلى قضايا نفسية واجتماعية مثلما نجد في مقالة طنوس الذي نبه إلى خطورة الضغط الأسري على الأبناء ..

34: الموقف : تباينت مواقف النقاد وتوزعت بين مواقف من مؤلفة السيرة وأخرى تتعلق بنص السيرة.

رأى المقال أنّ نصّ السيرة كشفَ عن مبدعة نجحت في إخفاء موهبتها السردية طويلا .. ووصفه بالكتاب البديع ، وذكر أنه كلّما قرأ الكتاب قرأه " بالشوق ذاته " ، بل استعار منه أسطرا لتكون مقدمة لمقالته النقدية. وذهبَ خضر إلى أن العيد حلقت في نصها ببراعة فكان رشيقا كتب نفسه بجدارة . واعتبرته درويش نصّا فائق النضوج الإبداعي ، بل هو في رأيها " رائعة أدبية كتبت بحرفية عالية " . ووصفه بزيع، فقال: إنه أحد أجمل كتب السيرة في الأدب العربي المعاصر.

في مقابل ذلك لم يخف بزيع أنّ التكتّم على الحياة العاطفية في سيرة العيد خيب توقعه. وبناءً على أنّ السيرة هي أن نقول "الأهم في مسار حياتنا" وعلى أنّ طفولة العيد لم تكن استثنائية، فإنّ ماجدولين عبر أيضاً عن خيبته حين تلقى "أرق الروح" لأن العيد لم تكتب ما سماها "السيرة المنسية".

ولقد تخللت هذه التقييمات مواقف وانطباعات من العيد الإنسان، أجمعت كلها على أكاديميتها ونضالها السياسي والحقوقي في لبنان والعالم العربي، وعلى أنها علامة بارزة في التاريخ العربي المعاصر.

لقد أبدى النقاد كلهم انحيازهم إلى العيد لدوافع كثيرة منها ماله علاقة بتجربتها النقدية والإبداعية ومنها ما هو إنساني إذ هي في رأي طنوس مثلاً "ضحية مجتمع" تحتاج إلى تعاطف وتشجيع ..

على هذا النحو تكون الملاحظات التقييمية قد كشفت في مجملها عن ممارسة نقدية جمعت بين المعرفة والثراء المنهجي والحس الانطباعي الذي تجلّى في الموقف وفي اللغة غير الجافة أو الباردة التي تلونت برذاذ من عشق ومحبة واحترام. ولعلها في ذلك لا تختلف كثيراً عن لغة سيرة العيد في "تألفها العشقي".

خاتمة: تندرج محاولتنا هذه ضمن ما يصطلح عليه "نقد النقد" الذي عرفه جابر عصفور في قوله: "هو قولٌ آخريّ النقدٍ يدور حول مراجعة القولِ النقديّ ذاته وفحصه، أعني مراجعة مصطلحات النقد وبنيتها التفسيرية وأدواته الاجرائية"¹⁴.

هو إذاً خطابٌ له وظائف أو أهدافٌ يطمحُ إلى تحقيقها من خلال اشتغاله على النصوص النقدية لعلّ أهمّها الكشفُ عن الأسس المنهجية للخطاب النقديّ وبيانُ منطلقاته الفكرية والعوامل التي أثرت فيه ودراسةُ المصطلحات التي شغلها ومدى انسجام نتائجها مع منطلقاته وبيانُ إلى أيّ مدى حقّق إضافةً فكرية في مجاله مقارنةً بما سبقه من أعمال ودراساتٍ ..

ولكن حسب ورقتنا أنها أضاءت محاورَ اهتمام النقد وكشفت عن بعض منطلقاتهم النظرية وعن سمات لغتهم المحكومة بسياقات قناة التواصل وبطبيعة المتلقي وبعلاقتهم بالكاتبة على المستوى الثقافي والإنساني.

على هذا النحو تكون ورقتنا قد أكدت أهمية هذا النوع من النقد وقيمة مساهمته في تجديد العملية الإبداعية والنقدية معاً رغم ما يعانيه في السياق العربي من صعوبات جعلته مأزوماً في رأي البعض¹⁵.

¹. كذلك كان للأدب وللأدباء فضل على الصحافة، حتى صح قول أحد الباحثين: "من أراد أن يكتب تاريخ الصحافة فليكتب تاريخ الأدب". عبد الله حسين: الصحافة والصحف، القاهرة 1948، ص 55.

². اتجاهات نقد الشعر العربي في العراق، دراسة الجهود النقدية المنشورة في الصحافة العراقية، مرشد الزبيدي، منشورات اتحاد الكتاب سوريا، 1999، ص 13.

³. إبراهيم السعافين وآخرون، أساليب التعبير الأدبي، دار الشروق، ط3، 2000.

⁴. دو بيازي بيير مارك (وآخرون): دخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترضوان ظاظا، عالم المعرفة ع 221، ماي 1997 صص 65.

⁵. تعبير "الصحافة" تعبير عام يشمل يشمل الصحافة اليومية والأسبوعية فضلاً عن المجالات بأنواعها. وهو مجال شاسع جداً يلزمه أكثر من باحث. بيد أننا نكتفي في دراستنا هذه ببعض النماذج نعتقد أنها تمثل مجتمعةً عينة مقبولة في حدود ما رسمناه من أهداف.

⁶. مرشد الزبيدي: اتجاهات نقد الشعر، ص 5.

⁷. انظر شكري فيصل، الصحافة الأدبية: وجهة جديدة في دراسة الأدب المعاصر وتاريخه، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، 1960.

⁸. يميني العيد: أرق الروح (سيرة)، دار الآداب 2013.

- ⁹ من أنواع المقال الصحفي : المقال الافتتاحي ، المقال العمودي ، المقال النقدي ، المقال التحليلي، التعليق الصحفي، المقال القصصي ، المقال الكاريكاتيري ، مقال على شكل رسالة ، اليوميات الصحفية.. للتوسع انظر: فاروق أبو زيد، فن الكتابة الصحفية، عالم الكتب ، القاهرة ، ط 4 ، 1990.
- نبيل حداد : في الكتابة الصحفية ، إربد عمان ، 2002 .
- إبراهيم أحمد إبراهيم، فن كتابة الخبر والمقال الصحفي، العربي للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2009.
- ¹⁰ فاروق أبو زيد : فن الكتابة الصحفية ، ص 217.
- ¹¹ عبد العزيز شرف: فن المقال الصحفي ، القاهرة، 2000، ص 191 .
- ¹² فاروق أبو زيد: فن الكتابة الصحفية ، ص 221.
- ¹³ ياسر الفهد : عوامل سلبية في المادة الأدبية الصحفية ، البيان ، الكويت ، ع 150 سبتمبر 1978، ص 65.
- ¹⁴ جابر عصفور : قراءة في نقاد نجيب محفوظ ، ملاحظات أولية ، فصول ، م1، ع24، أبريل 1981، ص 164.
- ¹⁵ علي حرب : قراءة ما لم يقرأ ، نقد القراءة ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، شباط 1989.